

بوشكين الارتري



كمال الجزولي جريدة الخليج

أسعدتني ظروف العمل، خلال عام 2011، بالإقامة لبضعة أشهر في العاصمة الإريترية الفاتنة. خلبت أسمرة لبّي ببساطتها الآسرة، ونظافتها المائزة، وأمانها الشامل، وهدوئها الذي تكاد، من فرط تمامه، تظن أن الناس فيها لا يتكلمون إلا همساً، أو بلغة الإشارة، وأن عرباتها لا تسير على شوارع من الأسفلت، وإنما تنزلق فوق ملاءات مشدودة من الحرير الناعم، وكان أصدقائي هناك من قضاة المحكمة العليا، ومستشاري وزارة العدل، يحيطونني على الدوام باهتمامهم الفائق، وكرمهم الفياض، ويرتبون لي، بين الحين والآخر، نُزهاً وبرامج ترفيهية تنتشلني من دوامة العمل.

إحدى هذه النزه والبرامج أخذتني، ضحى يوم أحد، إلى حديقة صغيرة بالقرب من مكتبة أسمرة الشعبية؛ حيث نصب الروس، في 28 نوفمبر 2009، تمثالاً نحاسياً رشيقاً، من أعمال نيقولاي كوزنيتسوف، لأمير شعرائهم، بل أحد أعظم شعراء العالم قاطبة، على اختلاف أجيالهم، والأب الشرعي للرواية والمسرح الروسيين، ومؤسس لغة الأدب الروسي عبر تاريخه الحديث، الاسكندر سيرغييفيتش بوشكين. ولئن سبق أن نُصب مثل هذا التمثال، وما زال يُنصب، في عشرات البلدان حول العالم، فإن لنصبه بإفريقيا سيرة فخر واعتزاز للقارة السوداء

تستحق أن تروى.

فبداية هذه السيرة، في نسختها القصيرة، تعود إلى قرنين للوراء؛ حيث وُلد بوشكين في السادس من يونيو عام 1799، بموسكو، وعاش، للأسف، عمراً قصيراً لم يتجاوز الثمانية والثلاثين عاماً، في عائلة أرستقراطية تنتمي، من جهة أبيه سيرغي بوشكين الذي كان، هو نفسه، شاعراً معروفاً، إلى حاشية من نبلاء البلاط القيصري تنعم بحياة الدعة والترف. أما في نسختها الطويلة فتعود سيرة الفخر والاعتزاز الإفريقيين بهذا الشاعر المفكر، والأديب العظيم، إلى الفترة ما بين خواتيم القرن السابع عشر، تاريخ ميلاد جده الأكبر لأمه، الجنرال الإريترى أبراهام هانيبال، وخواتيم القرن الثامن عشر، تاريخ وفاته (1698 1781). فوالدته ناديجا هي ابنة أوسيب هانيبال وماريا بوشكينا، وحفيدة أبراهام هانيبال، الملقب بـ«زنجي بطرس الأكبر»، والذي وُلد عام 1703 بإريترى لأمير أسير كان يتبع للسلطان العثماني، فأرسل إلى قصر السلطان في القسطنطينية. وفي العام التالي أقدم سافا راغوزينسكي، مبعوث روسيا بالقسطنطينية، على انتشال الأمير من بين خدم الحریم، واصطحبه إلى موسكو؛ حيث قدمه للإمبراطور بطرس الأكبر الذي عمّده، ولقبه بهانيبال، وأصبح أباه الروحي، فتربى في كنفه، وتعلم حتى أصبح مهندساً عسكرياً برتبة جنرال. ولعل علاقة ذلك الجد بالقيصر هي التي أوحى لبوشكين الحفيد برأئته «ربيب بطرس الأكبر»، إحدى أهم معالم الأدب الروسي التاريخية. الانتماء الأسري، إذاً، إلى طبقة النبلاء هو الذي مكن بوشكين من الالتحاق بأرقى المؤسسات التعليمية الروسية، بما في ذلك كلية الشؤون الخارجية. غير أن ولعه بالإبداع الأدبي حال دون اهتمامه بتلك الكلية، أو بالوظيفة التي تهيئه لها، فانكب بكل ملكاته العقلية واستعداداته الروحية، على مراكمة ما أضحى، لاحقاً، أضخم ميراث في الأدب الروسي، من قصائد وسرديات ونقد ويوميّات ومذكرات وأدب خطابات وخلافه، سوى أن اللافت بوجه خاص هو أن تربيته وتنشئته في أجواء البلاط القيصري لم تحل دون انحيازه إلى أبناء الشعب العاديين، وسعيه الدائم إلى التعبير عنهم، وعن قضاياهم، ما عرضه لاستبداد القيصر والنبلاء، كونه تأثر بالفكر الاجتماعي الهادف لإحداث تغييرات سياسية جذرية في روسيا، بل جعله أحد رواد ذلك الفكر الذي انعكس بوضوح في أشعاره، ورواياته، كما في كل أعماله الإبداعية.